

الفصل الثاني: العصمة والأنبياء الآخرون

قبل الانتقال إلى الآيات الكريمة المتعلقة بهذا الموضوع نود التنبيه على بعض الأمور بشكل مختصر.

أولاً: إذا اختار أي نبي الشيء الحسن مع وجود الأحسن فهذا يعد زلة بالنسبة إليه، ولكن هذا لا يعد في مقاييسنا خطأ ولا زلة، لأن ما اختاره كان حسناً، غير أن النبي عليه أن يختار الأحسن، لأنه من المقربين. لنضرب مثلاً يقرب الموضوع إلى الأذهان: لنفرض أن أحدهم يريد ختم القرآن الكريم، ولكن في كم يوم عليه أن يختمه؟ هنا يظهر أمامه ترجيحان، أحدهما أن يقرأ القرآن على مهل متأملاً معانيه فيختمه في عشرة أيام، والثاني قيامه بختم القرآن في سبعة أيام على أساس أنه دليل علي تمسك أكثر وحب أكثر لكلام الله تعالى.

لنفرض أنه اختار الترجيح الأول وختم القرآن في عشرة أيام، ولنفرض أيضاً أن رضا الله تعالى كان يتحقق بشكل أكثر وأفضل في الترجيح الثاني، فهنا يكون نيل رضا الله هو الأحسن، بينما يكون ما قام به هو الحسن، إذن، فلا يوجد هنا ذنب لكي يقال له: لقد أذنبت وأخطأت، كل ما يمكن القول هو أنه اختار الحسن مع وجود الأحسن، وليس من الصحيح هنا إسناد الذنب إليه.

هذا هو الوجه الحقيقي للأمر التي يقوم فيها الأنبياء بالاختيار حسب اجتهادهم الشخصي، لذا لا يمكن إسناد اقتراف الذنب إليهم، وسنعود فيما بعد إلى هذا الموضوع.

ثانياً: يُعد الأنبياء قبل كل شيء أئمة المجتهدين حيث يجتهدون في المواضيع التي لم ينزل فيها الوحي سواء أكانت أحكاماً أم أموراً شخصية أم أموراً اجتماعية، وفي معظم الأحوال تتوافق هذه الاجتهادات تماماً مع المراد الإلهي، وفي أحيان قليلة قد لا تصيب تماماً هذا الهدف مع أنهم يتحرون الرضا الإلهي على الدوام، وقد يُعد بالنسبة لمستواهم الرفيع خطأ، لأن عليهم أن يصيبوا هدف الرضا الإلهي إصابة دقيقة، ولكن خطأهم في الاجتهاد لا يُعد ذنباً أبداً ولا يُخل بعصمتهم، لذا فلا يُحاسبون عليه. ولو فرضنا العكس - وهو فرض محال - فهذا ليس من شؤوننا.

ثالثاً: إن مثل هذه الأمور البسيطة حدثت قبل نبوتهم، والزلة هنا تأتي بمعنى التزلزل

البسيط، ولا تعني الوقوع والانكفاء على الأرض. والآن لنعط بعض الأمثلة الشاحصة لما عرضناه، ولنحول نظرنا أولاً إلى أب البشرية آدم ﷺ.

أ- آدم ﷺ

يشرح القرآن الكريم موقف آدم ﷺ فيقول: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ﴿١٢٢﴾. واستعملت الآية تعبير "الاجتباء"، والاجتباء: الاختيار والاصطفاء، وهي عملية إنقاذ الشيء من أن يترسب إلى القاع أو من أن يتفرق يميناً وشمالاً كالفقاعات، أي أن الله تعالى أنقذ آدم من الوقوع في مثل هذا الوضع. وستتناول فيما بعد معنى كلمة "عصى" الواردة في الآية، وسنرى أنها لا تشير إلى معنى العصيان. والآن لتتابع موضوع آدم ﷺ. نستطيع تعلم معنى الطاعة من آدم ﷺ، فما أن زل حتى توجه إلى ربه الذي حفظه من السقوط: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣).

كان ذلك زلة، ولكن الله تعالى هداه إلى الطريق القويم بعد هذه الزلة والى الهداية، ونعلم من هذا أن هذه الزلة كانت قبل اجتبائه، ففي هذه الفترة كان آدم ﷺ مثل نبتة انحنت أمام هبوب عاصفة ولكنها اعتدلت مثل سابق عهدها بعد انقضاء العاصفة ولم تقتلع من جذورها. والرسول ﷺ يشبه المؤمن بالزرع ويشبه الكافر بشجرة الأرز التي لها منظر ولكن إن قلعته الرياح العاصفة لم تستطع أن تعتدل مرة أخرى: «مثل المؤمن كمثل خامة الزرع يفيء ورثه من حيث أتتها الرياح تُكفئها، فإذا سكنت اعتدلت، وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء. ومثل الكافر كمثل الأرزة صمء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء»^(١).

إذا أخذنا هذا بنظر الاعتبار علمنا أن زلة آدم ﷺ كانت قبل نبوته. ثم إن زلة آدم ﷺ كانت عبارة عن نسيان وعدم تذكر، والله تعالى يخبرنا بذلك فيقول: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (طه: ١١٥). ويقول في موضع آخر: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٣٥).

ولكن آدم نسي هذا، والنسيان طبيعة بشرية، ويقول الرسول ﷺ وهو يحلل هذا الموضوع: «(وَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ)»^(٢) وقد شرح الرسول ﷺ -الذي يعرف الطبيعة البشرية

(١) البخاري، التوحيد ٣١؛ مسلم، صفات المنافقين ٥٨-٥٩؛ الترمذي، الأدب ٧٩.

(٢) الترمذي، تفسير سورة (٧) ٣.

أفضل معرفة- هذا الموضوع بهذا الشرح الجميل.. الإنسان ينسى، وآدم إنسان إذن، فهو ينسى وقد نسي فعلاً، وفي هذا الحديث يشير الرسول ﷺ إلى تأثير الوراثة على تصرفات الإنسان وسلوكه، وعلى المختصين في هذا المجال الاستفادة من هذه الإشارة. إذن، فقد جاءنا النسيان من أبينا آدم ﷺ، فالله تعالى وضع هذا في ماهية آدم ﷺ وفي كروموزوماته، لذا لا نستطيع نحن التخلص من هذا. وعندما يذكر الله تعالى أن آدم نسي فهو يقطع سوء الظن ويبعده، ثم يقول بعده مباشرة: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طه: ١١٥) أي لم نجده عاقداً عزمه على فعل تلك الزلة ولم يقصدها قصداً، بل بدرت منه في ساعة نسيان.

ماذا كانت تلك الفاكهة المحرمة؟ هناك وجهات نظر عديدة في هذا الموضوع لا نستطيع سردها كلها هنا، وإلا قلبنا هذه الصفحة إلى دكان بائع الفواكه، الشعير، الحنطة، الرز، التمر، العنب.. الخ، ولا يغير نوع الفاكهة الموضوع أو يؤثر فيه، فالمهم هو ما حدث من وضع ومن مشكلة بعد أكل هذه الفاكهة. أما قناعتنا في هذا الموضوع فتختلف عما قيل حتى الآن بعض الشيء.

الفاكهة المحرمة هي الغريزة البشرية التي لم يكن بمقدور آدم ﷺ الوقوف في وجهها. وبفضلها تكاثر النسل البشري، والأمر نفسه كان وارداً بالنسبة لأم البشرية حواء، ونحن نرى - والله أعلم- أن الاقتراب من الشجرة يأتي بمعنى العملية التي يتكاثر بفضلها الجنس البشري.

ومع ذلك فلا نقول إن أصح رأي هو ما نقوله، ولكننا نعتقد أن من المفيد إضافة هذا الرأي وهذا القول إلى جانب الآراء الأخرى في هذا الموضوع، فإن كان صحيحاً فهذا فضل من الله، وإلا فإننا نلوذ برحمته الواسعة.

أحب أن أنبه إلى أمر قبل الانتقال إلى الحكم الديني للنسيان والخطأ إذ يتوجب علينا وصل الحوادث المتفرقة التي يقصها القرآن علينا ثم عرضها بشكل تام.. والأمر نفسه وارد هنا، ففي مرحلة نبي آدم ﷺ وحواء من عدم الاقتراب من الشجرة أو من الفاكهة المحرمة، ولكن كم من الزمن مر على هذه المرحلة؟ لا أحد يعرف هذا، ولكن الظاهر أن هذا الزمن كان طويلاً بحيث ساعد على نسيان آدم لهذا النهي، ثم تم تناول الفاكهة المحرمة بعد هذا النسيان.

والحساب مرفوع عن الخطأ فالرسول ﷺ يقول: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنَّسْيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(١) وألا يعلمنا القرآن الكريم أن نستغفر الله تعالى إن وقعنا في هذه الأمور؟

^(١) فيض القدير للمناوي، ٣٤/٤. وانظر في الروايات المختلفة للحديث إلى: البخاري، الحدود ٢٢، الطلاق ١١؛ أبوداود، الحدود، ١٧؛ الترمذي، الحدود، ١؛ ابن ماجه، الطلاق، ١٥، ١٦.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦). أليست هذه الآية من الورد الذي نقرؤه كل يوم قبل النوم؟

نسي آدم ﷺ وقطف الفاكهة المحرمة خطأ. فإذا كان هذا الأمر تم جراً الخطأ والنسيان الذي يقول الرسول ﷺ إن الحساب مرفوع عنهما، فكيف إذن، يعد آدم ﷺ أثماً أو مذنباً؟
فإذا كان الإنسان الاعتيادي يجتنب ما هو ظلم وعصيان لدى الله تعالى، فكيف لا يجتنب الأنبياء الظلم والعصيان وهم الأشخاص المصطفون والمختارون من قبله تعالى؟
أرى أن قول العكس غفلة كبيرة، بل إن بعض العلماء كرهوا قراءة هذه الآية بهذا المعنى.. لا شك أنه يستطيع أي إنسان قراءة هذه الآية وشرح معانيها على ألا يكون وسيلة لفهم خاطئ، لأن آدم ﷺ نبي ولا يمكن أبداً التحدث عن نبي وكأنه شخص عادي. وأسلوب القرآن حولهم يتأتى من زاوية درجة قربهم من الله تعالى وليس من زاوية تصرفاتهم، وكان القدماء يوضحون هذا بقول "حسنات الأبرار سيئات المقربين."^(١)

وحتى في القانون البشري نرى أن موظف الدولة إن اقترف ذنباً تزداد عقوبته، فإن كان مخالف القانون حاكماً أو محامياً ممن يعرف القانون تضاعفت عقوبته. فالأنبياء موظفون من قبل الله تعالى، وهم يعرفون أكثر من غيرهم ماذا يعني اقرار الذنوب، لذا كان من الطبيعي مضاعفة عقوبة من كان بهذا الموقع إن اقترف ذنباً. ثم ألا يعد اقرار الذنب في حرم الكعبة شيئاً أكبر وأشنع من اقرار الذنب نفسه في الأماكن الأخرى؟^(٢)

ألا يذكر القرآن الكريم مضاعفة العقوبة لزوجات الرسول ﷺ إن اقرفن الذنب؟^(٣)
ذلك لأن الكعبة رمز للقرب من الله تعالى، والناس هناك يُعدون ضيوف الرحمن، وكون أي امرأة زوجة للرسول ﷺ رمز أيضاً للقرب من الله تعالى، لأن بيت الرسول ﷺ هو البيت الذي ينزل عليه الوحي، ويدخله جبريل ﷺ على الدوام، لذا كان من الطبيعي مضاعفة العقوبة لأي ذنب يقترف في هذا البيت وذلك على قاعدة: "العُزم بالغُثم"، فمع زيادة المغنم يزداد المغرم.
وهذا هو أيضاً وضع الأنبياء عليهم السلام، فقد شرفوا بالقرب من الله تعالى، وملك الوحي معهم في غالب الأحوال، لذا فمن الطبيعي أن يعد أقل زلة عندهم بمثابة ذنب، وأن

(١) كشف الخفاء للعجلوني، ٤٣٨/١.

(٢) قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَتَّصِدُونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (الحج: ٢٥).

(٣) قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٠).

تقدم الزلة وكأنها ذنب، لأن طبيعة موقعهم تستوجب هذا، ولأكرر هنا فأقول بأن هذا الذنب وهذه العقوبة أو الجزاء لا يمكن تقييمه من زاوية ذنب أو جزاء إنسان عادي أو ولي من الأولياء، بل هو صورة ذنب من زاوية وضعهم وموقعهم كأنباء فقط وليس ذنباً حقيقياً، لذا لا يجوز إطلاق كلمة الذنب هنا.

ثم لنفرض أن الله تعالى أمر آدم ﷺ بعدم ملامسة زوجته والصوم عن مقاربتها، ولكن لكون آدم ﷺ قد تعلم الأسماء كلها فهو يعرف إذن، ما سيحل به بشكل من الأشكال. أجل، كان يعلم أن الدوامة التي دخل فيها ستقلبه مرات ومرات وتوصله -بتأثير من الدافع المركوز فيه- إلى النقطة التي خُطط لها.. فالإرادة الإنسانية التي تقاطعت في لحظة في عالم الأسرار في نقطة معينة مع المشيئة الإلهية أدت إلى هذه النتيجة، فإن لم نقل إنه نسيان - والقرآن الكريم يقول إنه نسيان- فعلى الأقل يجب مواجهته بمرونة.

وما دمنا وصلنا إلى هذه النقطة أرى من المفيد إيراد الحديث النبوي الذي يرويه البخاري ومسلم والترمذي، إذ يقول الرسول ﷺ: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة، فقال آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه أتلومني على عمل عملته كتبه الله عليّ قبل أن يخلق السموات والأرض. قال: فحج آدم موسى»^(١) وهذا الحديث يبين أن آدم ﷺ كان على حق في هذا النقاش، وهذا يعني أنه لم يقترف ما يعد إثماً بفعله ذلك.

عُلمَ آدم ﷺ الأسماء كلها -والمسميات كذلك- فعاش حياته مبهوراً في خضم أسرار هذه الأسماء، لذا فمن الغفلة ادعاء إمكانية قيام مثل هذا الشخص باقتراف ذنب عن سابق إرادة وتصميم. واحتمال آخر هو أن النهي عن تلك الفاكهة كان نهياً مؤقتاً، وأن آدم ﷺ كان يعرف هذا، ولكنه اجتهد برأيه ومد يده لتناولها قبل الأوان.. مد يده وأفسد صومه، وهذه العملية التي تعد الآن ثواباً إن تمت في دائرة الحلال كانت محرمة بشكل مؤقت على آدم ﷺ، أو أن ذلك النهي كان بالنسبة لقربه من الله تعالى، لذا عدُّ تصرفه هذا زلة.

والمقياس الذي عرضناه في حق آدم ﷺ سيفيدنا في فهم وضع الأنبياء الآخرين، إذ سنفهم أنهم متصفون بصفة العصمة، فالزلات المسندة إليهم ليست ذنوباً بالمعنى الذي نفهمه نحن من الذنب.

(١) البخاري، تفسير سورة (٢٠)، ١، ٣؛ القدر، ١١؛ المسلم، القدر، ١٣-١٥؛ الترمذي، القدر، ٢

ب- نوح عليه السلام

ناجى نوح عليه السلام ربه لينقذ ابنه فتم تنبيهه، وقد يبدو هذا في النظرة الأولى زلة بالنسبة لني، لندقق النظر في وضع هذا النبي الكريم الذي يعد الأب الثاني للبشرية لنعرفه عن قرب في ضوء نور القرآن الكريم. يورد القرآن الكريم دعاء نوح عليه السلام وجواب الله تعالى وتنبيهه له: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود:٤٥).

كان الانفعال قد سرى في كيان نوح عليه السلام وهو ينتظر الحادثة التي ستقع على رأس أمته، وكان قلقاً على مصير ابنه كأى إنسان آخر، فهل كان قلقه للمصير الذي سيلقاه ابنه أم لأن ابنه سيموت كافراً؟ لا شك أن قلقه لم يكن منحصرًا على دنيا ابنه وعلى بدنه وجسمه بل على حياته الأبدية وحياته الخالدة وهو الذي يعرف جيدًا السعادة الأبدية التي هيأها مولاه، وكذلك عذابه الأليم، ثم هناك أي والد لا يرتجف شفقة من مثل هذا المصير المرعب لابنه؟

أمام هذا الأنين الصادر من هذا القلب المكلوم جاء الإرشاد الإلهي الذي بين حقيقة الأمر: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود:٤٦).

إنه ليس من أهلك، صحيح أنه من صلبك وأن امرأتك ولدته وتربى في حجركم، ولكن أهلك هو من سار على دربك، ذلك لأنه اقترب عملاً غير صالح ودخل إلى دائرة فاسدة وتمرد عليك ودخل بين الكفار فقادوه إلى الغرق في المياه، وقاده الغرق إلى خسران حياته الأبدية، فلا تطلب مني شيئاً لا تعلمه حق العلم. إنني أعيدك أن تكون من الجاهلين، ذلك لأنك أهل للعلم وأهل للمعرفة وللحب، لأنك تعلم مولاك الحق، فلا يليق بك هذا الطلب وأنت من الأنبياء والمقربين إلي.

هذه هي الزلة الوحيدة لنوح عليه السلام الذي عاش تسعمائة وخمسين سنة إذ دعا من الله أن ينقذ ابنه المشرف على الغرق، فلماذا قام بهذا الدعاء وبهذا التوسل؟

أولاً: لقد بين القرآن الكريم أن الله تعالى أوصاه أن يحمل أهله والمؤمنين في السفينة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ (هود:٤٠). كان هذا هو الوعد الذي أخذه نوح عليه السلام من ربه، وكان طلبه ودعاؤه مستنداً إلى هذا الوعد، ولكنه لم يكن يعلم صدور الحكم الإلهي ضد ابنه، لذا لم يكن طلبه إلا طلباً لوعده الله تعالى.

بنى نوح سفينة استناداً إلى الوحي، ودعا الناس إليها بناء على أمر الله تعالى، كان أفراد عائلته بالطبع ضمن هؤلاء المدعويين، دعا أفراد عائلته ولكن ها هو يشاهد ابنه وقد حاصرته الأمواج، فأسقط في يده ولم يجد هناك إلا ملجأً واحداً يلجأ إليه وهو ربه الذي يبقى المنقذ الوحيد عندما تنسد الأبواب جميعها.. التجأ إليه لإنقاذ ابنه، فلم يبق أمامه سوى باب الدعاء من ربه.

وقد فوجئ عندما أخبره ربه أن ابنه ليس من أهله، كان يحسب أنه من أهله لأنه ابنه، ولكنه عندما نبه رجع حالاً إلى ربه وأتاب إليه واستغفره بهذا الدعاء الحار: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود: ٤٧). إذن، فعندما التجأ نوح ﷺ بطلبه إلى ربه لم يكن عالماً بالأمر، وعندما علم أسرع بالاستغفار، فهل يمكن إطلاق وصف الخطأ على هذا التصرف؟ وأي ضمير يرضى بذلك؟

ثانياً: ماذا كان طلب نوح ﷺ؟ لقد طلب نوح من ربه هداية ابنه، وأليس هذا شيئاً طبيعياً لأي أب؟ أب هو في الوقت نفسه نبي يبذل كل ما في وسعه لهداية الناس جميعاً، لذا ألا يعد تضرع نوح إلى ربه لإنقاذ الحياة الأبدية لابنه تصرفاً طبيعياً بل تصرفاً فاضلاً وهو الشخص الرحيم الذي مد جناحي رحمته ليظلل الناس جميعاً؟

أجل، نحن هنا أمام رحمة نبوية، هذه الرحمة التي تتجاوز خيالنا نحن، ولولا هذه الرحمة الواسعة لما كان بإمكانهم حمل عبء النبوة على أكتافهم. فكروا في أم من الأمهات.. فلكي تقوم هذه الأم بضم وليدها إلى صدرها والقيام بإشباع كل حاجاته ومتطلباته يجب أن تزود برحمة وبشفقة كبيرة، إذن، فما بالك بالرحمة المهداة إلى أي نبي من الأنبياء أو إلى أحد الأنبياء والكبار من أولى العزم وهم الذين فتحوا أذرعهم لاحتضان كل المطالب المشروعة الدنيوية منها والأخروية لبني الإنسان بأجمعهم!

ويقول القرآن الكريم وهو يصور الحالة النفسية لرسولنا ﷺ أمام المنكرين والكفار: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ^(١) نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف: ٦)، ويشرح رسول الله ﷺ وضعه منا بهذا المثل الذي يضر به إذ يقول: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَتْ الدُّوَابَّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ^(٢) وَأَنْتُمْ تَقَعَحُمُونَ فِيهِ»^(٣)

(١) باخع: مُهْلِك.

(٢) الحجز: جمع حجة، وهي معقد الإزار والسراويل.

(٣) مسلم، الفضائل ١٧؛ وانظر إلى الروايات الأخرى وبألفاظ مختلفة في: البخاري، الأنبياء ٤٠؛ الترمذي، الأدب ٨٢.

إذن، فهذا هو مبلغ الرحمة النبوية، وكان نوح ﷺ نبياً، لذا كان يحمل الشفقة نفسها. ولكنه ما إن سمع التنبه الإلهي حتى أناب إلى الله تعالى وتخلّى عن دعائه واستغفر ربه. والآن لنر التشابه بين دعائي نوح ﷺ وآدم ﷺ.. لقد توجه كلاهما إلى الله عندما علما بخطئهما وتضرعا إليه بدعاء متشابه وبأسلوب متشابه، لأنهما كانا من خميرة متشابهة وخلق متشابه.. درسا في المدرسة نفسها وعلى يد المعلم علام الغيوب نفسه، لذا كان عليهما أن يرجعا عن الخطأ بالشكل نفسه، ومع أن القرآن الكريم استعمل كلمات مختلفة في بيان إنابتهما وأوبتهما إلا أنه استعمل الأسلوب نفسه.

ثالثاً: هناك قاعدة دينية تقول: "نحن نحكم بالظاهر"، ولهذا اشترك رسول الله ﷺ في الصلاة على عبد الله بن أبي مع علمه بنفاقه، كما اشترك في الصلاة على كثير من المنافقين ولم يهتك سترهم،^(١) ذلك لأنهم كانوا في الظاهر يؤدون الصلاة ويصومون ويقومون بأداء جميع الشعائر الدينية.

لذا، فهناك احتمال أن موقف ابن نوح ﷺ كان الموقف نفسه، فربما كان ابنه يتظاهر بالإيمان على الدوام مع كونه منافقاً أو أن نفاقه ظهر على السطح في تلك الأثناء، وكان نوح ﷺ يحكم عليه حسب ظاهره ويعده من أهله، أما الحكم حسب الظاهر فلا يُعد ذنباً في أي وقت من الأوقات، لذا وبناء على هذا لا يكون نوح ﷺ قد اقترف ذنباً، فقد قام بواجبه.. وتصوروا هذا النبي الكريم الذي عاش تسعمائة وخمسين سنة وبذل كل جهده طوال حياته هذه، وتعرض إلى الهزء والسخرية وأسند إليه الجنون، ولكنه لم يهتز أبداً ولم تفتر عزمته أبداً مع أن الذين آمنوا به كانوا قلة قليلة كما يخبرنا القرآن الكريم: ﴿وَمَا أَمَرَ مَعَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (هود: ٤٠).

ويستطيع من يريد فهم النبي نوح ﷺ قراءة سورة نوح، عند ذلك سيفهم كيف أن هذا النبي الكريم بعيد عن اقتراف أي ذنب بعد الثرى عن الثرى، ندعو من الله تعالى أن يجعلنا من الفائزين بشفاعة نبينا وشفاعة نوح ﷺ.. آمين.

ج- إبراهيم ﷺ

إبراهيم ﷺ أبو الأنبياء و خليل الله.. الإنسان الذي لم تطرف عيناه خوفاً من أي شيء.. الإنسان الكبير الذي وجد البرد والسلام داخل النار.. الشخص المجتبي الذي كان ينقل جو الجنة الذي كان يحمله داخل جوانحه إلى كل مكان يذهب إليه حتى وإن كان ذلك جحيماً،

(١) البخاري، تفسير سورة (٩) ١٢، ١٣؛ المسلم، فضائل الصحابة ٢٥؛ الترمذي، تفسير سورة (٩) ١٢، ١٣.

وبينما يفرح كل إنسان عند انتسابه لرسول الله ﷺ كان الرسول ﷺ يفرح لشبهه بإبراهيم ﷺ إذ يقول إنه عندما عُرض عليه الأنبياء في معراجه: «ورأيت إبراهيم صلوات الله عليه فإذا أقرب من رأيت به شَبهاً صاحبكم»^(١) يعني نفسه. والآن لندقق حدود عصمته ونفهم ماهية العصمة عنده كذلك.

١. الكوكب والقمر والشمس

لم يعبد إبراهيم ﷺ في أي مرحلة من مراحل حياته الكواكب ولم يقترب من الشرك. وإن إطلاقه كلمة "ربي" على كل من الكوكب والقمر والشمس لا علاقة له مع الشرك لا من قريب ولا من بعيد.

والآن لتتابع من القرآن الكريم هذا الموضوع: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ٧٦-٧٨).

ولد إبراهيم ﷺ حنيفاً، لذا لا يتصور أنه قال "ربي" بشكل حقيقي للكوكب والقمر والشمس، ذلك لأن من يتوهم ذلك فكأنه يتناسى عن عمد الآيات التي سبقت هذه الآيات وهي: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرْتَنِي أَتَّخِذُ آبَاءَ عَصَاةٍ وَإِنِّي أَخَافُ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام: ٧٤)، والآية التي تأتي بعد ذلك تقول: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكَوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام: ٧٥).

إذن، فمثل هذا النبي المنفتح قلبه على مثل هذا العالم الغيبي لا يمكن أن يعد الكواكب -ولو بشكل مؤقت- رباً له مهما قالت الكتب المملوءة بالأساطير هذا. ثم إن الله تعالى لم يره ملك السموات والأرض فقط، بل أراه الملكوت كذلك، أي العالم الموجود وراء أستار هذا العالم الظاهري، وهو بهذا من الواصلين إلى الإيمان اليقيني.. بل إلى مرتبة حق اليقين التي هي المرحلة الأخيرة للإيمان اليقيني، لذا بعدما شرحت الآيات السابقتان كيف حصل إبراهيم ﷺ على الإيمان اليقيني نعلم أن إبراهيم ﷺ كان يريد أن يوصل إلى قومه بعض الحقائق في هذه الحادثة.. إذن، لتتناول الموضوع من هذه الناحية لنقوم بالتحليل:

في البدء نقول إن قوم إبراهيم ﷺ كانوا يعبدون النجوم مثلما عبد العرب في مرحلة من

(١) مسلم، الإيمان ٢٧١؛ الترمذي، المناقب ١٢؛ المسند للإمام أحمد، ٣/٣٣٤.

مراحل الجاهلية "الشَّعْرَى" التي أصبحت إلها يُعبد لكونها نجمة لامعة وأكبر من غيرها حسبما كانت تبدو لهم، وكان أهل بابل القدماء يعبدون النجوم أيضًا، هنا نعلم أن إبراهيم نظر إلى هذا الكوكب الذي كان يبدو -بعده- صغيرًا وأثار انتباه من حوله إليه، ثم قام بتنبية صغير ومعقول لهم يطابق الظاهر.. كان ما يقوله صحيحًا لا يخالطه أي كذب، وكان في كل دليل يقدمه لهم يهدم إلها لهم في السماء وإلها يمثله في الأرض.^(١) أجل، كان إبراهيم ﷺ يهدم بمنطقه أصنامهم واحدًا إثر آخر.. كانت هذه هي مهمته.. هدم الأصنام.

قدّر بعض المفسرين وجود همزة الاستفهام في أول جملة "هذا ربي"^(٢) أي أن الجملة المقدره هي سؤال إنكاري: "أهذا ربي؟" والجواب الطبيعي: "كلا.. ليس هو"، هذا أحد التفاسير، غير أن تفسيرنا للموضوع هو: تظاهر إبراهيم ﷺ أنه مهتم بما يعده قومه آلهة، وذلك كخطة لكي يجرهم إلى المستوى الذي عينه للنقاش معهم، ولم يكن هناك حل آخر أمامه غير هذا، وأعاره قومه آذانهم له على اعتبار أنه يتكلم عن آلهتهم، ولكن عندما انتهت المناظرة بينه وبينهم بالجمال الأخيرة لإبراهيم كانت جبهة الإيمان قد انتصرت على جبهة الكفر والشرك.

لقد تجول إبراهيم ﷺ مع قومه بين الكوكب والقمر والشمس وأراهم أن الجميع يأفلون.. كلهم ييزغون ويصعدون إلى كبد السماء ثم يأفلون في النهاية، والذي يولد ثم يكبر ثم يأفل ضمن قوانين معينة لا يمكن أن يحكم الكون، فكيف يستطيع من كان حادثًا الهيمنة على حادث مثله؟ كانت الجملة الأولى له لقومه وهي: ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ أول تنبيه لهم.. يجب ألا يكون في القلب محل للأفلين وللغاربين، ولا يكون الأفلون أهلاً للسير وراءهم، لأنهم يختفون ويأفلون.. أعطوني حبيبا لا يأفل.. حبيبا يكون أقرب إلي مني.. حبيبا يعرف جميع خلجات قلبي ورغباته، وعنده القوة والمقدرة على أن يحقق كل هذه الرغبات.

ثم يخطو خطوة أخرى.. يريهم القمر.. ولكنه يأفل أيضًا بعد مدة، فيقول جملة يتعرض لهم بها من طرف خفي ويريهم ضلالتهم: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (الأنعام: ٧٧).

وفي الخطوة الثالثة ينظر إلى الشمس التي هي كبير الآلهة عندهم.. بدأ من الصغير وهدم إلهين صغيرين عندهم، والآن جاء دور الإله الأكبر، لذا عندما أفلت الشمس وغربت

^(١) كان قوم إبراهيم ﷺ يعبدون النجوم، وكان لكل نجم صنم يمثله في الأرض.

^(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ١٩/٧؛ روح المعاني للآلوسي، ١٩٩/٧.

خاطب ضمائر القوم الموجودين هناك: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ والآن جاء دور الجملة الأخيرة إذ توجه إليهم بهذا الكلام الحار الخارج من أعماق قلبه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٧٩). ولو أن إبراهيم عليه السلام قال هذه الجملة منذ البداية لما استمع إليه أحد.. راعى مستواهم ووضعهم وعقليتهم وتدرج معهم فبدأوا يستمعون إليه، ولو لم يتدرج في كلامه معهم لما وجد أحدًا يستمع إليه ولما استطاع أن يؤثر فيهم.

وهكذا فضل إبراهيم عليه السلام بفطنته اختيار هذا السبيل لكي يظهر حقيقة "لا إله الا الله" لكل فرد في قومه، وهذا المنطق مطابق تمامًا للمنطق القرآني، وكيف لا وكلاهما استقى من المنبع نفسه وعكسا الحقيقة نفسها.

أود هنا جلب أنظاركم إلى نقطة معينة، فإبراهيم عليه السلام يقول: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وهذه الجملة جملة إسمية، والجمل الإسمية في اللغة العربية تفيد الاستمرار، وهذا معناها: إنني كنت بريئًا ولا أزال بريئًا مما تشركون. إذن، فلم يتفوه إبراهيم عليه السلام بأي كلام ولم يقيم بأي تصرف يستشف منه أي شرك، والتعابير التي استعملها لم تكن إلا خطة محكمة من خططه الحكيمة، لذا فلا يوجد شيء في كلامه يخل بعصمته.

٢ . إحياء الموتى

والشيء الثاني الذي يُزعم أنه زلة هو طلبه من ربه إحياء الموتى. والقرآن الكريم يشرح هذه الحادثة فيقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

كان إبراهيم عليه السلام بطلًا من أبطال الروح وعالم المعاني والإيمان الذي يبحث دائمًا عن المزيد، وظل قلبه مفتوحًا على الدوام للمزيد من معرفة الله، لذا نراه يريد اقتحام آفاق جديدة من المعرفة بمشاهدة كيفية إحياء الله تعالى للموتى.

أكان لدى إبراهيم عليه السلام شك أو شبهة في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى؟ كلا على الإطلاق، فقد تضرع إلى الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى، إذ لم يقل لله تعالى: أأستطيع أن تحيي الموتى؟

واستجاب الله تعالى لطلبه فأمره أن يأخذ أربعة طيور ويجعلهن يألفنه ثم يذبهن ويقطعهن ثم يجعل على كل جبل منهن جزءًا ثم يدعوهن فيأتيه سعيًا: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ (البقرة: ٢٦٠).

والحقيقة أن الله تعالى أراه مثلاً واحداً من أمثلة الإحياء التي تتكرر في كل موسم ربيع آلاف المرات، غير أنه أكرم نبياً عظيماً من أنبيائه فقدم له هدية خاصة في هذا المجال لكي يرتشف الإيمان اليقيني وينهل من منهل الإيمان من درجة الاطمئنان.. كان إبراهيم عليه السلام يعب من هذا المنهل العذب ولا ينطفئ ظمأه وعطشه.. فلم يكن طلبه هذا ناتجاً عن شك أو شبهة أو تردد وهذا ظاهر من سؤاله، إذ لم يقل لله تعالى: "هل تقدر أن تحيي الموتى أم لا تقدر؟" وهذا يشبه قولك لرسام كبير: "دعني انظر إليك وأنت ترسم لوحة" أو لخطاط فنان: "خط أمامي لكي أرى كيف تخط مثل هذه الخطوط الجميلة"، فليس في مثل هذا الطلب أي ناحية تعجيزية، بل هو تعبير عن الافتتان بفننه الجميل واعتراف به، ولهفة على رؤية دقائق فنه وسعادة كبيرة في تأمل كيفية ظهور لوحة رائعة مرحلة فمرحلة.. أجل، فالسؤال كان حول كيفية الإحياء وليس حول إمكانيته أو عدم إمكانيته.

ثانياً: إنه كما قال سيد قطب رحمه الله:

"إنه التشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية، وحين يجيء هذا التشوف من إبراهيم الأواه الحليم المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب الخليل.. حين يجيء هذا التشوف من إبراهيم فإنه يكشف عما يختلج أحياناً من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوب أقرب المقربين!.

إنه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره، وليس طلباً للبرهان أو تقوية الإيمان.. إنما هو أمر آخر، له مذاق آخر.. إنه الشوق الروحي إلى ملابسة السر الإلهي في أثناء وقوعه العملي ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب ولو كان هذا هو إيمان إبراهيم الخليل الذي يقول لربه ويقول له ربه، وليس وراء هذا إيمان ولا برهان للإيمان، ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهي تعمل ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها ويتنفس في جوها ويعيش معها.. وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان.^(١)

ثم إن إبراهيم عليه السلام كان يريد أن يشبع إيماناً بمستواه هو، فالرجل الأمي قد يتصور أنه ما من أفق آخر غير أفقه المحدود، وليس هناك طريق تتجاوز طريقه.. ألم يزعم محيي الدين بن عربي -في شطحاته- أن خاتم الأنبياء يتلقى الدروس من خاتم الأولياء؟ لماذا؟ ذلك لأن رأسه لمس القبة المضروبة على قدره ومقياسه، وعندما دخل من الباب المقدر له دخوله

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب، ١/٣٠١-٣٠٢.

ضاقَت به أطر الباب، بينما كان هذا الباب صغيرًا جدًّا بالنسبة للقصر الكبير.. مثل باب غرفة صغيرة فيه.. بينما كان الباب الذي دخل منه إبراهيم الخليل باب سور كبير وباب مدينة كبيرة.. قَبته السماء، يستطيع أن يتطلع فيها إلى الشمس والقمر والنجوم.. فأفق المعرفة لأكبر ولي يبقى محدودًا جدًّا بالنسبة لأفق المعرفة الذي وهبه الله تعالى لنبيه وخليله إبراهيم ﷺ، وإذا كان إبريق من الماء يروينا، فإن البحار ما كانت لتكفي لإرواء ظمئه ﷺ إلى المعرفة، لذلك كان صاحب هذا القلب الكبير كلما رأى دليلاً وآية من آيات ربه ذرف الدموع حُبًا ووجدًا.

سأل شمس الدين التبريزي جلال الدين الرومي: أيهما أعظم! هل النبي محمد ﷺ الذي يقول «ما عرفناك حق معرفتك يا معروف!»، أم أبو يزيد البسطامي الذي يقول: "سبحاني ما أعظم شأنِي!" فأجابه جلال الدين الرومي جوابًا مذهلاً إذ قال: "نستطيع أن نعرف من هذين القولين كيف أن سيدنا محمد ﷺ أكبر من البسطامي بما لا يقاس، ذلك لأن الرسول ﷺ كان كالبحر المحيط لا يمكن ملؤه، بينما كان البسطامي مثل إبريق ماء امتلأ بسرعة ثم فاض."^(١) كان إبراهيم ﷺ إنسانًا لا يعرف حدًّا للشعب من المعرفة الإلهية.. كان دائم الطلب "هل من مزيد؟" .. أعطني يا رب من معرفتك المزيد.. لذا، ففي حديث يرويه البخاري ومسلم يقول الرسول ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»^(٢) أي بما أننا لا نشك في إحياء الموتى، لذا فمن الأولى عدم وجود الشك عند إبراهيم ﷺ.

٣. التعريضات الثلاثة لإبراهيم ﷺ

عند البحث عن عصمة النبي إبراهيم ﷺ يجدر بنا الإشارة إلى ثلاث أكاذيب أو بالأصح إلى ثلاثة تعريضات له، ذلك لأننا نستعرض هنا عصمة الأنبياء بشكل عام، بينما يُعد الكذب ذنبًا كبيرًا، لذلك فتفوه الأنبياء بأي كذب يخل بعصمتهم ويخل بالثقة بهم، فالكذب لا يصدر من قلب مؤمن.

يقول رسول الله ﷺ في حديث له: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاثا»^(٣) ولا تأتي كلمة "يكذب" هنا بمعنى الكذب المعروف بل بمعنى "التعريض". وقد يبدو قولنا هذا تكلفًا من الناحية اللغوية، غير أنه صحيح من ناحية المعنى الذي سنوضحه بعد قليل، ذلك لأنه يجب

(١) نفحات الأنس لمألام جامي، ص ٥٢١ (ترجمة لامعي جلي).

(٢) البخاري، الأنبياء ١١؛ مسلم الإيمان ٢٣٨.

(٣) البخاري، الأنبياء ٨، النكاح ١٢؛ مسلم، فضائل ١٥٤؛ أبو داود، الطلاق ١٦.

الانتباه جيداً إلى التعبير، إذ لا يمكن إسناد الكذب الحقيقي لإبراهيم عليه السلام، فلا يأتي الكذب هنا بالمعنى الوارد في قواميس اللغة، نطلق كلمة "التعريض" لأمثال هذه الكلمات.

كان الرسول ﷺ يمزح أحياناً ولا يقول إلا حقاً، فمثلاً كان يمزح أنساً ﷺ فيقول له: «يا ذا الأذنين!»،^(١) طبعاً كان لأنس ﷺ أذنان. وخاطب امرأة فقال لها: «أنتِ زوجة الرجل الذي في عينه بياض؟» فقالت: يا رسول الله، ليس في عين زوجي بياض. فقال لها الرسول ﷺ: «في كل عين بياض.» وأتته مرة امرأة فقالت: يا رسول الله، ادع لي أن يدخلني الله الجنة، قال: «يا أم فلان! إن الجنة لا يدخلها عجوز»، فولت العجوز تبكي فقال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۖ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾» (الواقعة: ٣٥-٣٦).^(٢)

إن النبي يختار كلماته جيداً حتى وهو يمزح.. أجل، إن المقام الذي كان يشغله الأنبياء لم يكن يبيح لهم الكذب حتى في المزاح، ذلك لأنهم في موقع القدوة والأسوة للإنسانية جمعاء، فإن كذبوا في المزاح كذب الناس في الجسد، لذا فلا يمكن أن يكون أي نبي مثلاً سيئاً في أي شيء.

كان النبي إبراهيم عليه السلام منذ ولادته حنيفاً وعدواً للأصنام، وقف أمامها وعمل ضدها وكافح العكوف على الأصنام حتى قبل بعثته، حتى جاء يوم قرر فيه أن يهدم الأصنام جميعها. كان من عادات قومه النظر إلى النجوم لمعرفة ما سيقع من حوادث، لأنهم كانوا يعتقدون أن ذلك أن الآلهة موجودة في السماء بين النجوم، وكانوا يعتقدون أن النجوم تتحكم في مصائر الناس، وكان إبراهيم عليه السلام ينظر أيضاً إلى النجوم ولكن من أجل محاولة إقناع قومه والوصول إلى تحقيق غايته، ولم يكن يفكر طبعاً تفكير قومه في هذا الصدد.

نظر إبراهيم عليه السلام نظرة إلى النجوم فقال "إني سقيم"، هذه هي كذبه الأولى أو بالأصح تعريضه الأول، وسنشرح فيما بعد لم قال هذا. وتعريضه الثاني قاله عندما كسر جميع الأصنام ثم علق مطرقة على عنق كبير الأصنام قائلاً لمن سأله من فعل هذا بأصنامهم: "إنه كبيرهم هذا فاسألوه."

أما الثالث فلا يذكره القرآن ويتعلق بزوجه إذ أوصاها بأن تذكر لمن يسأل عنها أنها أخته.^(٣)

(١) الترمذي، المناقب ٤٥؛ أبو داود، الأدب ٨٤.

(٢) الشمائل للترمذي ٢٤١.

(٣) البخاري، تفسير سورة (١٧) ٥؛ مسلم، الإيمان ٣٢٦-٣٢٧.

هذه هي التعريضات الثلاثة لإبراهيم ﷺ وستتناولها جميعاً لنرى الوجه الحقيقي لعصمته بعد معرفة ماهية الحوادث.

أ - "إني سقيم"

يشرح القرآن الحادثة الأولى فيقول: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۖ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۖ أَتُنْفِكُوا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۖ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۖ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۖ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ (الصافات: ٨٣-٩٠). كان إبراهيم ﷺ يقصد من "إني سقيم" الإشارة إلى السبب الرئيسي لعدم شعوره بالراحة، كانت الأصنام مصدر حزنه وسقمه.. شعر بأنه ما لم يهدم هذه الأصنام ويكسرها فلن يجد طعاماً للراحة، وعندما قال لمن حوله: "إني سقيم" ظنوه مريضاً من الناحية الجسدية فتولوا عنه، إذ كانوا يصرون على اصطحابه معهم لمشاركتهم في احتفالهم الديني.. ما إن خرجوا من عنده حتى أسرع ليحطم الأصنام مبيناً بذلك السبب الحقيقي لسقمه غير أنه استعمل في كلامه معهم تعريضاً يفهمون منه شيئاً غير مقصوده الحقيقي، ولكنه لم ينحرف في كلامه هذا إلى الكذب أبداً، كل ما هنالك أن قومه لم يفهموا قصده الحقيقي، وليس هذا بغريب عن قومه الذين صموا آذانهم عن الاستماع إلى الحق، كان هذا هو مصدر الخطأ.

كان ما استعمله إبراهيم ﷺ تعريضاً، ولكنه كان شخصاً مستقيماً إلى درجة أن هذا التعريض الذي استعمله آلمه إلى درجة أنه سيقول يوم القيامة لمن يأتيه يسأله الشفاعة أن يذهبوا إلى موسى لأنه تذكر كذباته، يقول الرسول ﷺ: «..فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبى الله وخليله من الأرض، اشقِّع لنا إلى ربك، ويقول: -فذكر كذباته- نفسي نفسي اذهبوا إلى موسى»^(١)

تأملوا كيف أن إبراهيم ﷺ استعمل تعريضاً مثل "إني سقيم" مرة في حياته وقارنوا بينه وبين أقوال من يرون أنفسهم في خدمة الإسلام -ولا أذكر غيرهم- إن كان ذلك اضطراراً أم لا لكي يتبين لكم مدى براءة أقوال النبي إبراهيم ﷺ.. لقد سهل اليوم التذبذب بين الصدق والكذب، لذا يجب الحذر تماماً حتى من تجويز استعمال "التعريض" اليوم، ذلك لزيادة الكذب وفشوه في أيامنا الحالية، ولما كانت هذه هي الحال فيجب الحذر حتى في

(١) البخاري، تفسير سورة (١٧) ٥؛ مسلم، الإيمان ٣٢٦-٣٢٧.

المواضيع الثلاثة التي أجاز النبي ﷺ الكذب فيها،^(١) ذلك لأنه كانت هناك هوة واسعة بين الصدق والكذب في العهد النبوي.. كان الصحابة يمثلون الصدق وكان مسيلمة وأتباعه يمثلون الكذب، كانت هذه هي المسافة الموجودة سابقاً، أما الآن فالوضع مختلف.

أجل، إن الذين يمثلون الحق يجب ألا يعطوا للكذب أي مجال سواء في حياتهم الفردية أم في حياتهم الاجتماعية، فهذا هو الشرط الأول للوصول إلى موضع الثقة والأمن، يجب أن نتبعد نحن عن الكذب وبتعدد عنا الكذب، فإذا كنا نبدي كل هذه الحساسية في هذا الموضوع، إذن، فخمنا الحساسية التي يديها الأنبياء عليهم السلام في هذا الخصوص وهم الذين تعلمنا الصدق منهم، خاصة إن كان هذا النبي هو النبي إبراهيم ﷺ جد نبينا محمد ﷺ.

ب - " بل فعله "

والتعريض الثاني هو: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِبِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَغْنِي النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ (الأنبياء: ٥١-٦٣).

يُسأل إبراهيم ﷺ: ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ فيجيبهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ﴾ ويسكت هنا، وفي القرآن الكريم علامة وقف هنا، أي يتم الوقوف هنا في التلاوة، والضمير (هـ) يعود إلى نفسه أي إبراهيم، ولكنه استطاع بمهارة حديثه توجيه أنظارهم إلى الصنم الكبير. والحقيقة أنه نطق هنا بجملتين مختلفتين، ولكن عند التلفظ بهما أصبحتا وكأنهما جملة واحدة، لذا فلم يستطيعوا فهم مراده الحقيقي. فالجملة الأولى هي: ﴿بَلْ فَعَلَهُ﴾ والثانية هي: ﴿كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ ولكنه عندما ربط الجملتين أصبحتا وكأنهما جملة واحدة: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وهنا يكمن التعريض، ويكمن هنا أيضا استهزاء خفي من الكفر ومن

(١) المسند للإمام أحمد، ٤/٤٥٤؛ كنز العمال للهندي، ٣/٦٣٢-٦٣٣. فقد ورد في الحديث لا يصلح الكذب إلا في إحدى ثلاث: الرجل يكذب على امرأته ليصلح خلقها، ورجل يكذب ليصلح بين امرأين مسلمين، ورجل كذب في خديعة حرب فإن الحرب خدعة.

عبادة الأصنام عندما قال: ﴿كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ ولكن عقولهم كانت مشبعة بفكرة الأصنام إلى درجة لم يفهموا معها سخريته هذه، فيما أنه أشار إلى الصنم وذكر أنه "كبير"، إذن، كان هذا كافياً بالنسبة إليهم ولا يهمهم بعد ذلك قصده ونيته.. ويل لعبادة الأوثان! ويل للتحجر الفكري! ويل للأذهان الضامرة والصدور المنغلقة دون النور الإلهي!

ج - "أختي"

لا توجد في الحادثة الثالثة ذرة من الكذب، بل لا يمكن حتى إطلاق كلمة "التعريض" على كلامه، فهو كلام صحيح وصادق تمام الصدق، إذ أوصى زوجته سارة أن تقول للنمرود ولرجالها إن سألوها "إنني أختي"، ولو سألوها إبراهيم ﷺ عنها لقال "إنها أختي"، ذلك لأن إبراهيم ﷺ لو قال إنها زوجته لامتدت أيديهم بالأذى والسوء إليها، ولوقع هو وزوجته في ضيق شديد، وربما اضطررا إلى ترك تلك البلاد والرحيل عنها، غير أن ما قاله إبراهيم ﷺ مطابق للحقيقة، ذلك لأن جميع المؤمنين إخوة كما يقول الله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، والإيمان هو الرباط الأول الذي يربط الإنسان بالآخرين، وفي غياب وجود هذه العلاقات فإن الذين يولدون من أب واحد وأم واحدة لا يُعدون إخواناً، واختلاف الزمان والمكان لا يكون حائلاً بين أخوة الإيمان، والمؤمنون والمؤمنات إخوة فيما بينهم دون أي تفرقة بين ذكر وأنثى، أما نقاط التقارب الأخرى فتأتي بعد هذه الأخوة، فإن قام مؤمن بتطليق زوجته انقطعت رابطة الزوجية فيما بينهما، ولكن رابطة الإيمان تبقى موجودة. فالنبي إبراهيم ﷺ أشار إلى هذه العلاقة وإلى هذه الرابطة وقال عن زوجته إنها أخته، وهذه الكلمة تفيد عين الحقيقة حتى أنها لا تُعد تعريضاً، غير أن الذين في أعينهم غشاوة وفي قلوبهم أكنة لن يفقهوا هذا أبداً. ما نستفيده نحن من هذا الموضوع:

(١) إن إبراهيم ﷺ لم يكذب أبداً.

(٢) يجب على الذين يسировون في طريق الأنبياء وفي أثرهم ألا يكذبوا ولا يقتربوا من الكذب، والمؤمن الحقيقي يحس بالآلم الضمير طوال عمره من منظر حرام تعلق بنظره، أو من كذب جرى على لسانه مرة، بل يذرف الدموع أسفاً وندماً.. وعلى المرشدين -مهما كانت مراتبهم ودرجاتهم- أن يقضوا حياتهم باستقامة ودون انحراف.

٤ . استغفاره لأبيه

والآن لنلق نظرة على زلة إبراهيم ﷺ عندما قام بالاستغفار لأبيه. فلماذا استغفر لأبيه الذي كان على ضلال مبين، ولماذا تضرع لله تعالى أن يغفر له؟ ألم يكن من الأولى لنبي

مثله الاكتفاء بالذين آمنوا برسالته؟ ولماذا أصر في موضوع والده كل هذا وتضرع إلى الله تعالى أن يغفر له؟ أكان هذا خطأ منه؟ وكيف نستطيع أن نعزو الخطأ إلى نبي معصوم؟ وإذا أخطأ هنا فما الضمان أنه لم يخطئ في مواضيع أخرى؟ وكيف نعرف ذلك؟ أنستطيع بعد معرفة ذلك من اتباعهم بقلوب مطمئنة؟

هذا هو أساس الشبه التي أوردتها الملاحدة السابقون ويورده اليوم بعض أصحاب الشكوك والشبه من المتظاهرين بالمعاصرة. قال إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (الشعراء: ٨٦). ويشرح القرآن الكريم السبب الذي دعا إبراهيم إلى هذا الدعاء: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٤).

كما يشرح القرآن كيف وعد إبراهيم أباه فيقول: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَإِنَّا بِكُمْ كَافِرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (المتحة: ٤).

هنا دلالة واضحة جداً على وجود عداوة أبدية بين الكفر والإيمان، ففي روح الكفر هناك بغضاء نحو الإيمان كطبيعة في الكفر لا يمكنه الفكك منه، لذا تكمن هنا عداوة الكافر للمسلم واستحالة محبته.

يبين القرآن الكريم ضلال أبي إبراهيم عليه السلام، وهذا الضلال لم يكن ليشكل نقيصة في حق إبراهيم عليه السلام، إذ يمكن القول بوجود أناس لم يصلوا إلى نور التوحيد من بين أجداد رسول الله ﷺ كذلك، ولا يدري أحد ماذا كان موقف عبد المطلب أو هاشم أو لؤي من عقيدة التوحيد، ولكننا نستطيع أن نقول بكل اطمئنان أنهم عاشوا في عهد "الفترة" وأنهم سيعاملون على هذا الأساس، ومع ذلك فإن احتمال وجود أي قصور فيهم لا يمكن أن يشكل مانعاً من تكليف رسولنا ﷺ بالرسالة الإلهية إلى البشرية.

أولاً: ليكون معلوماً أن كان آزر أباً لإبراهيم عليه السلام وكان إبراهيم عليه السلام يقول إنه على ضلال مبين، فلا يقدح هذا في نبوته، فالله تعالى يخلق أحياناً من آزر أمثال إبراهيم عليه السلام ومن نوح عليه السلام أمثال كنعان.. أجل، فمن أناس مثل الشياطين سوءاً قد يأتي أشخاص كالملائكة صفاء ونقاء.. والعكس وارد أيضاً، فالله تعالى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، فقدرته تسع كل شيء وليس من حد أحد محاسبته.. أجل، لقد خلق من شخص ميت مثل آزر شخصاً حياً مثل إبراهيم عليه السلام -الذي كان ينفخ الحياة في الناس- ويجعله أباً لسلسلتين

ذهبيتين، فابنان من أبنائه من الأنبياء. فبينما وقفت سلسلة ذرية ابنه إسحاق عليه السلام عند النبي عيسى عليه السلام استمرت سلسلة إسماعيل عليه السلام حتى رسولنا الكريم ﷺ.

ثانياً: إن دعاء إبراهيم عليه السلام لأبيه شيء إنساني وفطري تماماً، لذا نرى نبينا وهو يدعو عمه أبا طالب إلى كلمة التوحيد ويتلهف لهدايته، وبعد أن مات عمه قال الرسول ﷺ: «أما والله لأستغفرنَّ لك ما لم أُنه عنك»^(١) علماً بأن عمه عاونه مدة أربعين عامًا وتحمل معه جميع المشاق والصعاب حتى أنه لم يتركه وحيداً عندما أعلنت قريش مقاطعة المسلمين.. فكما كان من الطبيعي ومن الفطري تلهف الرسول ﷺ على هداية عمه الذي حماه طوال حياته وأزره، كذلك كان من الطبيعي قيام إبراهيم عليه السلام بالاستغفار لأبيه، ذلك لأن والده هو سبب وجوده والذي قام بتنشئته، ثم إن الدين يأمر ألا يقول الابن لوالديه -مهما كانت عقيدتهما- كلمة "أف".^(٢)

ثالثاً: التبليغ هو غاية وجود الأنبياء، ولكنهم لا يملكون الهداية. مهمتهم تبليغ الحق والحقيقة على الدوام واستعمال كل وسيلة مشروعة في هذا الصدد. لذا، كان إبراهيم عليه السلام يبذل جهده لتليين قلب والده تهيئة له لقبول الهداية، لذا فالمحتمل أن وعده بالاستغفار له كان من أجل هذه الغاية، ذلك لأن الدعاء وسيلة من وسائل الهداية وليس من الصحيح الوقوع في اليأس من هداية أي شخص.

يجب ألا يكون هناك يأس لأنه مع أن الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٦) صريحة أن بعض الكفار لن يستطيعوا الوصول إلى الهداية فإن نبينا ﷺ كرر محاولاته مع كفار عنيدين أمثال أبي جهل وأبي لهب وابن أبي مُعيط ودعاهم مرة بعد مرة إلى الهداية.. إذن، فالهداية في يد الرحمن وكان إبراهيم عليه السلام يؤمن بهذا، لذا جرب كل وسيلة مع والده حتى وسيلة الدعاء.. أجل، هذا هو سبب دعائه وتضرعه لله تعالى من أجل والده، إذ كان إيمانه بالله تعالى في مرتبة الاطمئنان، لكنه ما إن عرف المشيئة الإلهية حتى تخلى حالاً عن دعائه وفوض الأمر كله لله تعالى.

ثم إن إبراهيم عليه السلام أتى في السبيل الممتد حتى رسولنا ﷺ وكلف بحمل رسالة النبوة. كانت وظيفته هي القيام بتبليغ قومه جميعاً، ولم يكن هناك أي سبب يدعوه لاستثناء أبيه،

(١) البخاري، الجناز ٨١، مناقب الأنصار ٤٠؛ مسلم، الإيمان ٣٩؛ النسائي، الجناز ١٠٢.

(٢) قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغْ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء: ٢٣).

فإذا أضفت إلى هذا الميل الفطري رأيت أن كونه ابناً ونبياً في الوقت نفسه كان يدفعه إلى الإصرار على محاولة هداية أبيه، وعندما نقرأ القرآن الكريم نلمس مدى لهفة إبراهيم عليه السلام ورغبته في هداية والده وعدم اهتمامه بالخشونة التي يوجهها من قبله أن يخاطبه على الدوام بقلب متوله: "يا أبت.. يا أبت..":

﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿١١٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿١١٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿١١٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿١١٥﴾﴾ (مريم: ٤١-٤٥).

أجل، كان إبراهيم عليه السلام يقدم لأبيه رسالته النورانية مثلما يقدمها للناس أجمعين، وهل هناك ابن لا يود من أعماق قلبه هداية أبيه إلى الحق ولا يسعى إلى ذلك بكل جهده، لاسيما إن كان شخصاً مثل إبراهيم عليه السلام الحليم.. الأواه.. المنيب؟

رابعاً: يرى بعض المفسرين أن كلمة "أب" تأتي في اللغة العربية بمعنى "الجَدَّ" و"السلف"، لذا يقولون إن هناك احتمالاً بأن الذي خاطبه إبراهيم عليه السلام بـ"يا أبت" ليس أباه، بل هو جده أو عمه أو قريب آخر من أقربائه،^(١) وقد أتى جمع كلمة "أب" وهي "آباء" بمعنى "الأجداد" و"الأسلاف"، فمثلاً قول يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ (يوسف: ٣٨)، فكلمة "آبائي" تأتي هنا بمعنى "أجدادي"، كما أن تعبير "آبائنا الأولين" يرد كثيراً في القرآن الكريم. فإذا كان هذا هو الأمر فيجوز أن إبراهيم عليه السلام لم يكن ابن آزر بل حفيده أو ابن أخيه حتى أن هناك رواية بأنه كان ابن تارح^(٢) وقد يكون ابن شخص آخر. فإذا كانت الاحتمالات واسعة بهذا الشكل، علمنا أن إبراهيم عليه السلام لم يكن بالشخص الذي يستغفر لأبيه بعد أن تبين له ضلاله، والقرآن الكريم ينقل لنا دعاء آخر له: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (إبراهيم: ٤١).

فإذا تطلعنا إلى الموضوع من هذه الزوايا نرى بوضوح مدى طهارة ونزاهة ونقاوة إبراهيم عليه السلام ومدى معصوميته وعدم اقترابه من اقتراف أي ذنب ومدى عظمته كنبى.. لقد نطق بالحق على الدوام، وكان بجانب الحق دائماً.

(١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، ١٣/٣٧-٤٠؛ روح المعاني للآلوسي، ١٦/٩٦.

(٢) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، ١٣/٣٧-٤٠؛ تفسير البياضوي للبيضاوي، ١/٣٠٧-٣٠٨؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٠/١٦٣-١٦٤.

كان إبراهيم عليه السلام إنسان التوحيد، ورمزًا للتسليم المطلق ﷺ، لذا أهديت إليه صفة "الخلة"، والآية: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء: ١٢٥) تشير إلى هذه الخلة، فلم ينحرف قيد شعرة عن أي أمر من أوامر الله تعالى، فلما قيل له اذبح ابنك، لم يتردد في ذلك لحظة واحدة،^(١) وعندما أمر أن يصطحب زوجته وابنه ثم يتركهما وسط صحراء موحشة لم يتردد في تنفيذ هذا الأمر، تركهما في الصحراء وانصرف دون أن يلتفت ويلقي نظرة وراءه،^(٢) وفي مرة أخرى امتحن بحياته وبنفسه، إذ ألقي داخل نار جهنمية، ولكنه لم يقلق ولم يضطرب أقل اضطراب. ويروى أن ملكًا أدرك إبراهيم عليه السلام وهو يهوي إلى النار المتأججة فقال له: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا. فقال الملك: ادع الله إذن. فقال: عليم بحالي غني عن سؤالي. لذا كان جزاء مثل هذا الاستسلام المطلق أن الله تعالى جعل تلك النار بردًا وسلامًا عليه.^(٣)

إذن، فإن إبراهيم عليه السلام كان نبيًا بهذا المستوى، وكانت علاقته بربه هذه العلاقة الرفيعة، لذا فالتفكير باحتمال اقترافه أي ذنب ليس إلا عدم معرفة هذا النبي الكريم على حقيقته وجهل به. أجل، لقد كان أنموذجًا للرحمة وللشفقة، وانطلاقًا من رحمته الواسعة وشفقته العميقة أراد هداية أبيه، ولكنه عندما عرف الماهية الحقيقية لوالده تبرأ منه، وفي رواية أن الله تعالى سيقبل والده يوم القيامة إلى ذبيح^(٤) ملتطخ، وعندما ينظر إبراهيم عليه السلام إلى هذا المنظر يتخلص من علاقته الفطرية بوالده،^(٥) والله أعلم.

د- يوسف عليه السلام رمز العفة

التوراة مملوءة بالافتراءات على يوسف عليه السلام، فلم يبق هناك افتراء إلا وألصقوه به، حتى نزلوا به إلى مرتبة إنسان عادي، بينما كان نبيًا طاهر السيرة والصورة، وكان -ككل الأنبياء الآخرين- مزينًا بزينة العصمة.

^(١) قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيُ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبُحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١١﴾ وَنَادَيْتَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٢﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٤﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٦﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ (الصافات: ١٠٢-١١١).

^(٢) انظر هذه الآية: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾ (إبراهيم: ٣٧)؛ وانظر أيضًا: البخاري، الأنبياء ٩.

^(٣) انظر هذه الآية: ﴿فُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ (الأنبياء: ٦٩)؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي،

٢٠٠/١١-٢٠١؛ الدر المنثور للسيوطي، ٤/٣٢٢.

^(٤) ذبيح: هو ذكر الضبع الكثير الشعر. ملتطخ: متلوث بالدم ونحوه.

^(٥) البخاري، الأنبياء ٨.

غير أن علينا أن نعترف بكل أسى بأن بعض المفسرين تأثروا بالتوراة أو بمعنى أعم بالإسرائيليات، واقتبسوا منها فأسندوا إليه ما لا يصح الإسناد إلى نبي معصوم. أما نحن فسنتناول عصمة يوسف ﷺ - مثلما تناولنا الأنبياء الآخرين - من الآيات القرآنية، وعلى ضوءها سنحاول أن نصل إلى عصمته، وليست محاولتنا هذه سوى إظهار ما هو موجود فعلاً في الآيات بشكل واضح، فأى شخص عادي يستطيع فهم هذا من قراءة لسورة يوسف بشرط أن يدرك معاني الآيات، ويكفي هنا ألا ينظر إلى هذا الموضوع بفكرة مسبقة لديه.

ألقى النبي يوسف ﷺ في البئر من قبل إخوته، ثم بيع عبداً حيث اشتراه وزير في مصر واعتنى به ورباه في بيته كابنه، ولكن عندما أصبح شاباً بدأت زوجة الوزير تحمّل تجاهه مشاعر خاصة، وأخيراً غلقت الأبواب في يوم من الأيام - كما يذكر القرآن - وأرادت وصاله.. ارتجف يوسف ﷺ من هذا الطلب الذي لم يخطر بباله في يوم من الأيام، فأسرع يهرب منها، ولكنها وصلت إليه وقَدّت قميصه من الخلف، وما أن انفتح الباب حتى رأيا سيدهما هناك، وهنا امتحن يوسف ﷺ امتحاناً آخر، إذ لجأت الزوجة إلى الافتراء عليه وقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ (يوسف: ٢٥).

والآن لننقل ما جاء في هذا الخصوص في القرآن الكريم: ﴿وَرَأَوْنَاهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف: ٢٣).

أولاً: لا يغتاب القرآن، إذ لا يذكر اسم المرأة، بل يذكر فقط أنها ربة ذلك البيت. والمرأة هي التي قامت بغلقت الأبواب، وكانت الدعوة - بكل ما تحمّل من إغراء وفننة - صادرة منها، فيأتي الجواب من رمز العفة: "معاذ الله"، فيكون يوسف ﷺ بذلك رمزاً للعفة أمام جميع الشباب حتى يوم القيامة وقدوة لهم.

والآية صريحة تماماً في بيان الرد القاطع الذي رد به يوسف ﷺ. فمن كان المقصود عندما قال يوسف ﷺ ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ إما أنه كان يقصد الله تعالى ويرى في اعتراف الإثم جحوداً لكل النعم التي أسبغها الله تعالى عليه، إذ لا يمكن أن يصل الجاحدون إلى الفلاح أبداً، وإما أن يكون المقصود هو زوج المرأة تلميحاً إلى قوله لامرأته ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، فهذا الزوج أحسن كثيراً إلى يوسف ﷺ فكيف يمكن له أن يقابل كل هذا الإحسان بالجحود والعقوق؟

هنا توجد نقطة مهمة يجب الالتفات إليها، إذ أن هروب يوسف ﷺ من الإثم لم يكن بسبب النعم التي أسبغها الله تعالى أو إكرام زوج المرأة مثواه.. فهذه تشكل إحدى أسس

المسألة فقط، وتقريب للموضوع إلى مستوى عقلية تلك المرأة ومستوى فهمها، إذ أن سبب ابتعاده عن الإثم يختبئ تحت الجملة الأولى التي نطق بها وهي "معاذ الله" أي ألتجئ إلى الله.. أي أن سبب تهربه من الإثم يعود إلى خشيته من الله تعالى، وهذه هي التقوى المقبولة. ثم إن يوسف ﷺ كان على علم بالنتيجة التي سيولدها الإثم.. فالإثم ظلم وتجاوز للحد ودخول إلى دائرة مفرغة وفسادة، والنتيجة هي الخسران في الدنيا وفي الآخرة.

والآية التي أدت إلى سوء فهم موقف يوسف ﷺ هي الآية التي أتت بعد تلك الآية مباشرة، وهي: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (يوسف: ٢٤). وقبل تفسير الآية علينا أن نقف عند معاني بعض الكلمات فيها. الكلمة التي أدت إلى سوء الفهم هي كلمة "هم".

هذه الكلمة فعل ماض ولها معان عديدة، حيث يُختار المعنى الأنسب بالنسبة لموقف الفاعل، وهنا قاعدة في علم اللغة تقول بوجوب اختيار المعنى الأساسي والحقيقي للكلمة إن لم يكن هناك دليل مناقض لهذا المعنى، ولم يكن هناك تناقض مع الموضوع المنوه عنه، أي يُختار المعنى الأول للكلمة. والمعنى الأول الذي يعطيه علماء اللغة -مع وجود بعض الفروق الإقليمية- لهذه الكلمة هو: قَلِقَ وحزن، ومصدره الهمّ، ومعنى قَلِقَ أو أفلق هو الوقوع في اضطراب قلبي، وفي الغم وفي الحزن الشديد. فإن نسبنا هذا الفعل إلى زليخا لكان معنى "همت" أنها حزنّت من جزاء يوسف ﷺ وقلقت بِصَدِّهِ وداخلها حزن كبير بسببه.

ثم إن يوسف ﷺ قلق وحزن واغتم أيضًا، ذلك لأنه كان بمثابة أسير في ذلك البيت، فلو هرب منه لقبض عليه وأعيد إلى البيت، ثم إن هذه المرأة أصبحت مسلطة عليه، إذن، فكما كان يوسف ﷺ مصدر حزن لها لأنها كانت تشتعل غرامًا به، فإنه كان قلقًا ومغتمًا باسم عفته وعصمته. ولم يزل قلقه حتى رأى برهان ربه وعلم أنه في حفظ الله تعالى ورعايته وأنه لن يسمح لأحد أن يلوّثه، لأن الله جعله في حرز حريز بكل البراهين التي أحاطه بها. ولكنه حتى حصول هذا العلم وهذا اليقين عنده فقد قضى أوقاتًا عصيبة.. ويجب إعادة النظر في التفاسير من هذه الزاوية.

ثانيًا: كانت زليخا قد عقدت عزمها ورسمت هدفها.. يجب أن يكون يوسف ﷺ لها.. كانت غايتها هي هذه.. وهناك آية أخرى تشرح وضعها: ﴿قَدْ سَعَفَهَا حُبًّا﴾ (يوسف: ٣٠) أما موقف يوسف ﷺ فهو: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾

(يوسف: ٢٤)، وكلمة "المُخْلِصِينَ" في الآية كلمة مهمة جدًا.. هناك "المُخْلِص" و"المُخْلِص" .. ويوسف ﷺ من المُخْلِصِينَ.. فكل نبي يكون مُخْلِصًا.

المُخْلِص هو صاحب الإخلاص، أي هو الذي يعمل كل شيء في سبيل الله تعالى وفي سبيل نيل رضاه وحده، ولكن يوسف ﷺ كان آنذاك في مرحلة البحث ولا يزال في الطريق، أو بالتعبير الصوفي لا يزال في مرتبة "السير إلى الله"، وعندما يسير إلى الله يدخل في نضال للمحافظة بعمله وبتصرفاته وسلوكه على استقامة السير وعدم الانحراف عن الوجهة الصحيحة.

أما "المُخْلِص" فهو الشخص السامق القامة الذي تخلص نهائيًا من أي قلق وترعب على ذروة الإخلاص، فقد أتم قطع الطريق الذي يسلكه "المخْلِص" من زمان، وهو الآن في مرتبة "السير من الله" .. مثل هذا الشخص تخلص نهائيًا من الزلل والورطات التي يقع فيها أمثالنا.. ويوسف ﷺ من هذا النوع ومن هذه المرتبة. إذن، فكيف يمكن إسناد تصرف أو سلوكك إلى يوسف ﷺ المُخْلِص مع أن هذا التصرف لا يليق حتى بالمُخْلِص!؟

جاء في سورة يوسف أن النبي يوسف ﷺ -بطل هذه السورة- من أهل الإحسان في خمسة مواضع، وهذا يعني أن الأرض والسماء.. الصديق والعدو.. الخالق والمخلوق.. الكل يشهد على يقينه وعلى قيامه بمحاسبة نفسه ومراقبتها.

عندما بلغ يوسف ﷺ أشده ورشده أشار الله تعالى إلى صفة الإحسان وعمق شعوره عنده فقال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٢٢). وفي السجن عندما اكتشف الجميع -الشقي منهم والسعيد- عمق أفق تفكيره وطهره وعلمه اللدني قبلوه مرجعا لهم، فأقبلوا عليه مؤمنين به وبكلامه عارضين عليه مشاكلهم: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٣٦).

خرج بنجاح من كل امتحان دخله. لذا، يمدح الله تعالى رمز الرجولة هذا الذي استطاع التربع على عرش قلوب الأصدقاء والأعداء على السواء، ولم يستطع أي شيء تغيير سلوكه وتصرفه تجاه الدنيا وزينتها: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٥٦). وهكذا يبشره ربه ويقدم له ضمانا إلهيا.

وعندما جاء اليوم الذي استطاع فيه إخوته -الذين كان الحسد قد ملأ قلوبهم حتى آنذاك- التخلص من جو الحسد المحيط بهم قالوا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٧٨).

وأخيرا عندما وصل يوسف ﷺ إلى ذروة النضوج والاطمئنان أشار إلى نعم الله تعالى

عليه وفضله فقال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٠). أجل، مثل هذا الإنسان الذي حاز على حسن شهادة الجميع لا يمكن -حسب السنن الإلهية- أن يكون معرضاً للانحراف، ولا للتذبذب بين الهبوط والسمو ولا للحرمان.

نعم يعده الله تعالى من المحسنين. وبينما نصل نحن إلى العمل عن طريق الإيمان، وعن طريق العمل إلى الإيمان الحقيقي، وفي نهاية الطريق نستطيع الوصول إلى مرتبة الإحسان.. هذه المرتبة التي تعد آخر مرتبة نصل إليها نرى أن هذه المرتبة هي المرتبة الأولى التي يخطو منها الأنبياء، أي هي خطوتهم الأولى في طريق سيرهم.

والإحسان الذي يشرحه الرسول ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١) هذه المرتبة التي تعد آخر مرتبة لنا هي المرحلة الأولى للأنبياء، لذا يجب النظر في الأمور من هذه الزاوية وتقييم الأمور على ضوءها، ولكن إن قمنا بقياس الأنبياء مع أنفسنا وقمنا في أخطاء عديدة ولم نصل إلى الحقيقة.

كانت زليخا ويوسف ﷺ ينتسبان إلى عالمين مختلفين تمام الاختلاف.. أحدهما قد غلب عليه الغرام والهيام، قد شلت إرادته فلا تری عينه شيئاً آخر.. إنسان يعيش عالم أحاسيسه ومشاعره.. بينما الإنسان الآخر إنسان يرنو ببصره إلى عالم آخر.. نبي مُحسن مُخلص.. إنسان قد فرد جناحيه ليطير في عالم آخر.

لكلا هذين الإنسانين تم استعمال كلمة "هم" .. ولكن معنى هذه الكلمة يختلف باختلافهما وباختلاف هدف وغاية كل منهما. أجل، ينبغي إعطاء معنى مختلف باختلاف مستواه من ناحية الروح والثقافة والعلم.

ثم إن الاختلاف الموجود بينهما سيظهر إلى السطح من اللوحة التي سنتبين بعد قليل.. يوسف يسرع نحو العفة والطهارة، وزليخا نحو الشهوة والإثم. كانا يتسابقان.. يوسف يهرب وهي تلاحقه، ولو كان لدى يوسف ﷺ أي ميل للإثم لما كانت هناك مثل هذه المطاردة.. إذن، كان هدف يوسف ﷺ وغايته شيئاً آخر.. كان متوجهاً نحو غاية سامية.. وعندما أمسكت زليخا بقميصه تريد منعه من الخروج من الغرفة تمزق قميص يوسف ﷺ من الخلف، ولكنه استطاع فتح الباب والخروج من الغرفة والمرأة في أثره، وهنا وجدنا الوزير أمامهما، فلم تجد المرأة التي فوجئت بهذا سوى الدفاع عن نفسها والافتراء بأن يوسف ﷺ كان يحاول الاعتداء عليها، ولكن زوجها لم يَملِ إلى كلامها لوجود شاهد

(١) البخاري، الإيمان ٣٧؛ مسلم، الإيمان ٥٠١؛ الترمذي، الإيمان ٤.

صامت هناك، هذا الشاهد مع صمته كان باستطاعته إفحام أبلغ البلغاء، وهو الثوب الممزق ليوסף ﷺ.. كان الوضع واضحاً لقريب من أقرائها الموجود هناك، بل واضحاً حتى لطفل صغير.. لقد وضع الأمر، فيوسف ﷺ بريء لأن قميصه كان مقدوداً من خلف، ولو كانت المحاولة من قبله وقاومت المرأة لكان من المفروض أن يُقَدَّ قميصه من أمام.. كان هذا أحد البراهين التي رآها يوسف ﷺ من ربه الذي حفظه بهذا القميص المشقوق، ومهد له السبيل للمستقبل المشرق الرائع.

أي كان "هم" يوسف ﷺ متجهاً لحبيبه، و"هم" زليخا متجهاً لحبيبه.. لذا، تورط كثير من المفسرين في خطأ كبير عندما لم يميزوا الفرق الكبير بين "هم" نبي كريم يعيش تحت رقابة دائمة لله تعالى، وبين "هم" امرأة أعمت الشهوة عينيها، ووضعوا كليهما في كفة واحدة وكان تفكير كليهما كان محاطاً بستار كثيف من الشهوة الجسدية، وأنا أرى ضرورة إعادة النظر في جميع التفاسير والشروح والتعليقات غير المستندة إلى الكتاب والسنة، ومثل هذا التصحيح سيُرضى حتى أولئك المفسرين حسنى النية الذين كانوا ضحية للإسرائيليات، فمن يدري كم من فيوضات حرموا منها بسبب أخطائهم هذه.

أجل، إننا موفنون بأن الذين يقيمون الأنبياء وكأنهم أشخاص عاديون سيحرمون من جوهر المعنوي ومن أنفاسهم النافثة للحياة.

أما ما قيل بأن يوسف ﷺ مال إلى دعوة زليخا وهم باقتراف الإثم إلا أنه رأى أباه يعقوب ﷺ وهو يعرض على إصبعه محذراً يوسف فهو سفسطة وأسطورة وقصة مختلقة ومن قصص الإسرائيليات الموجودة في الكتب المحرفة ويجب طرح مثل هذه القصص المختلقة من كتبنا.

يقول الولي الكبير "عبد العزيز الدباغ" في شرح آية ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ بأن زليخا همت لتحقيق غايتها، وهم يوسف ﷺ بمنعها، ربما بضرب زليخا ورفع يده عليها،^(١) ولهذا الولي كثير من الالتفاتات الرائعة والدرر النفيسة الأخرى.

ثم كيف يمكن تصور شيء آخر لمن قال الرسول ﷺ في حقه: «إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله»،^(٢) جده الكبير هو إبراهيم ﷺ وجده إسحاق ﷺ والوالد هو يعقوب ﷺ.. إذن، فهذا هو يوسف ﷺ الكريم

(١) الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ للسيد أحمد بن المبارك، ص ٢٦٢.

(٢) البخاري، الأنبياء، ١٩، المناقب ١٣؛ المسند للإمام أحمد، ٩٦/٢، ٣٣١.

بن الكريم بن الكريم بن الكريم. فالرسول ﷺ أشار إلى المرتبة التي يشغلها يوسف ﷺ وهي مرتبة لا يبلغها حتى خيالنا. وبينما لا يخطر على بالنا -نحن الأشخاص العاديين- مثل هذا الإثم الكبير، كيف يمكن لنبى طاهر وسليل نبوة طاهرة أن ينزل إلى مثل هذا المستوى؟ هذا شيء لا يتصوره العقل ولا المنطق.

وعندما زادت فتن النساء والأعيهن تجاه هذا النبى التجأ إلى ربه: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٣٣)، أي رضى بعفونة السجن وظلمته وحياته القاسية وفضلها على حياته في ذلك القصر الفخم والأثاث الفاخر. إذن، ألا يكفي قضاءه ما يقارب التسع سنوات في عذاب السجن ومحنته في سبيل المحافظة على عفته وطهارته دليلاً على عصمته؟ هؤلاء النسوة اللاتي فتن به وقطعن أيديهن أمام حسنه الباهر.. هؤلاء النسوة اللاتي حاولن إحراج موقفه بنشرهن خبر تعلق زليخا به وعشقها له، كما طرقت أبواب حيل أخرى للتقرب إليه.. غير أنهم وجدوا كل مرة أمامهم هذا الشاب المؤمن الذي قُدت إرادته من الجرائيت، ولم يستطعن الحصول منه على أي شيء.

التجأ إلى ربه وسأله الحماية، فاستجاب له ربه وحفظه منهن ومن كيدهن داخل جدران السجن الآمن، وأصبح السجن منذ ذلك الوقت يستقبل الدعاة إلى الله وإلى القرآن.. أي أصبح "مدرسة يوسفية".

كان حرصه على عفته شديداً إلى درجة أنه عندما جاء وقت إطلاق سراحه من السجن رفض الخروج حتى يتثبتوا تماماً من عفته، وحتى يقوم الدليل القاطع على طهارته، ذلك لأن العيش طاهراً ونقياً شيء، وإثبات ذلك الطهر والنقاء شيء آخر، لأن ذلك كان ضرورياً لمهمته في المستقبل.. رفض الخروج من السجن حتى قامت زليخا بالاعتراف على الملأ وأقرت كيف كان أنموذجاً للعفة. إذن، فماذا نقول لمن يريد إسناد اقرار الذنب لهذا النبى الكريم حتى بعد قيام زليخا بالاعتراف بذنبها؟